أنور عبد الملك ومستقبل النظام العالمي الجديد

د. جميل أبو العباس زكير الريان

مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة بكلية الآداب جامعة المنيا

مقدمة:

انفردت الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي في التسعينيات برسم السياسات العالمية وقيادة النظام العالمي. ولكن تراجع هذا الدور في الآونة الأخيرة بسبب التحديات الجمة التي وجهتها الولايات المتحدة والتدخل الأمريكي غير المبرر في سياسات الدول الأخرى. وفي الوقت ذاته تنامت قوة العديد من القوى الكبرى مثل: الإتحاد الأوروبي واليابان، وظهرت قوى صاعدة في النظام العالمي يطلق عليها دول البريك BRIC وهي (البرازيل وروسيا والهند والصين)، حيث تتمتع أغلب هذه القوى بثقل سياسي واقتصادي كبير لا يمكن إهماله أو تجاوزه أو حتى مواجهته سواء من قبل الولايات المتحدة الأمريكية أو أية دولة من دول العالم(١).

ومن ثم فقد تعددت الكتابات التي تشير إلى أن النظام العالمي يمر بمرحلة انتقالية جديدة من شأنها إعادة تشكيلِه على أساس متعدد الأقطاب وليس أُحادي القطبية كما هو الحال ومن ثم اختلاف أشكال المواجهة في هذا النظام. وعلى الرغم من تعدد سيناريوهات مستقبل النظام العالمي إلا أن الاتجاه العام يذهب إلى تأكيد التحول إلى نظام التعددية القطبية، وذلك لأنه على الرغم من الشواهد على قوة الولايات المتحدة الأمريكية وانفرادها بالشأن العالمي، إلا أن الشواهد على ضعفها بدأت مؤخرًا في الظهور، وخاصة من داخل النظام الأمريكي ذاته، وآخرها الأزمة المالية العالمية التي اشتدت في سبتمبر ٢٠٠٨، وألحقت أضرارًا بالغةً لا يمكن تجاهل تداعياتها. إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نأخذ في الاعتبار أن بيئة المحددات الأساسية للسيناريوهات المستقبلية للنظام العالمي تتميز بالحركة الدائمة والتغير المستمر، سواء في العناصر والمكونات أم في الأوزان النسبية لكلٍ منها(٢).

لذا فقد جاء "أنور عبد الملك" بتصور جديد للنظام العالمي وقد اعتمدت في هذا البحث على الاهتمام بقضية "النظام العالمي الجديد" أي أن العالم يتجه الآن نحو صياغة نظام عالمي جديد، وهنا نتساءل ماذا يقصد عبد الملك بالنظام العالمي الجديد؟، ومتى ظهرت فكرة العالمية؟، وما هي أسباب الهيمنة على العالم؟ وغيرها من التساؤلات المتعلقة بموضع البحث.

مفهوم النظام العالمي:

بداية، لا نستطيع الحديث عن شيء حتى نقف على ما معناه وما المراد به؟ وقبل كل ذلك أين نشأ هذا المفهوم ومن صاحبه وما حقيقته؟. يشير "مفيد نجم" في هذا الصدد إلى القول "إن الولايات المتحدة الأمريكية التي وجدت نفسها بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، تتربع وحيدة على قمة الهرم الدولي، وقد سارعت إلى الترويج لمقولة هذا النظام الجديد، باعتباره يشكل تحولًا كبيرًا في طبيعة العلاقات الدولية ومضمونها، وحاولت إعلاميًا وسياسيًا التبشير بقيم هذا النظام، الذي تسعى إلى قيادته بصورة منفردة ووحيدة انطلاقا مما مثله اقتصادها من قيمة خاصة هي الأمثل والأفضل في الاقتصاد العالمي، حتى وجدنا كاتبًا أمريكيًا معروفًا هو "فوكوياما" يتحدث عن أن هذا الاقتصاد الذي أكد تفوقه ونجاحه الكبير، وانتصاره على النظام الشيوعى بعد تفكك وزوال الاتحاد السوفيتي، مما جعله يمثل سقف العالم أو نهايته. وبغض النظر عن هذه الطروحات "البراجيماتية" فإن تفرد دولة وحيدة بقيادة العالم، وتزعمه، هي الحالة الأولى في التاريخ إذ أن السمة المميزة لهذا التاريخ ظلت تتميز بتعددية الأقطاب. ومن أجل هذا الاستحواذ، وهذا التفرد عملت الولايات المتحدة جاهدة على تكريس زعاماتها للعالم، وتفردها بالقرار الدولي إلا أن عدم وضوح السياسة الأمريكية، وتناقضها الواضح في مواقفها الدولية، حيال القضايا الراهنة، وتعدد المعايير في التعامل أو التعاطي مع هذه القضايا يكشف عن أمرين هامين وأساسيين هما: غياب الاستراتيجية الواضحة الأهداف والمعالم التي تمتلكها الولايات المتحدة، وتنطلق منها في قيادتها للمرحلة الجديدة التي يمر بها العالم، إضافة إلى

غياب المعايير الأخلاقية والإنسانية الواحدة التي تميز هذه السياسة الأمريكية وتمنحها مضمونها الجديد الذي يجب أن تتميز به لتعبر من خلاله عن طابع التحول في الموقف والعلاقات الدولية الجديدة[٣].

إن مفهوم "النظام العالمي" أو "النظام الجديد" كما تحاول الولايات المتحدة أن تسميه، لم يكن اختراعًا أمريكيًا بل إن الرئيس "ميخائيل غورباتشوف" إبان مرحلة البيروسترويكا في الاتحاد السوفيتي السابق هو أول من أطلقه وحدد مضمونه المتمثل في الانتقال من مرحلة الصراع الأيدولوجي إلى مرحلة التعايش القائم على التعاون وحل المشاكل الدولية بصورة سليمة إلى جانب اعتبار الديمقراطية قيمة إنسانية حقيقية وكبيرة، يجب تكريسها إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية بعد سقوط الاتحاد السوفيتى في بداية التسعينيات حاولت أن تستغل هذا التحول الجديد والمفاجيء في الوضع الدولي لتكريس تفردها بزعامة العالم، ولذلك جندت كل إمكاناتها السياسية والإعلامية للتبشير بهذا التحول التاريخي الجديد، والحديث عن النظام الدولي الجديد الذي تقوده وتعمل على تكريسه والذي يقوم على جملة من المباديء والأسس والقواعد التي لخصها الرئيس الأمريكي "جورج بوش" في تلك المرحلة في خطاب ألقاه في إحدى القواعد الجوية الأمريكية أثناء أزمة حرب الخليج الثانية "إن أركان النظام الدولي هي تسوية المنازعات بالوسائل السليمة، والتضامن الدولي في مواجهة العدوان والعمل من أجل تخفيض مخزونات الأسلحة وإخضاعها للسيطرة ومعاملة الشعوب معاملة عادلة[٤].

أما "عبد الملك" فيعرف النظام العالمي بأنه:"شكل سياسي واقتصادي واستراتيجي تنتظم في إطاره وحدات وأنماط من العلاقات تنطوي على صراعات ومواجهات وعمليات تنمية وتطور اجتماعي، وتحديث، تقفز أحيانًا بسرعة هائلة ثم تتوقف أو ترتد أو تصاب بضربات وهجمات مضادة تكسر شوكتها. ولقد برزت في إطار هذا الشكل منذ عام ١٩٤٥ قوتان عظميان، أي أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية"[٥].

ويؤكد "عبد الملك" أيضًا أن مفهوم النظام العالمي هو "إدراك معظم المجتمعات أنها مرتبطة في إطار واحد، واقعي لا أسطوري، يؤثر على حياتها اليومية وعلى مستقبلها ويطلق عليه "العالم"، وهو استشعار غالبية شعوب المجتمعات البشرية، والسواد الأعظم من الناس أنها جزء لا يتجزأ من دائرة أو إطار أوسع من دائرة الوطن، والأمة، ورابطة الجوار الثقافي أو الديني، أو الحضاري، إطار يتعدى الدولة الوطنية والقارة، وكأنه الإطار أو الدائرة الأكثر عمومية والأكثر شمولًا، أي في نهاية الأمر الإطار أو الدائرة التي قد يكون لها الوزن الأكبر في تبدل الأمور أو تطورها"(٦).

إن تعريف "عبد الملك" للنظام العالمي يرشدنا إلى مفهوم العولمة Globalization والتي تعني، وإن كانت قد اتخذت معانٍ متعددة بأنها "تشير إلى كل المستجدات والتطورات التي تسعى، بقصد أو بدون قصد، إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد، وقد ذهب "أنطوني جيدنز" إلى "أنها تكثيف للعلاقات الاجتماعية على مستوى العالم"(٧).

وإذا تساءلنا متى ظهرت فكرة العالم عند "عبد الملك"؟ نرى أنه يشير بأن مفهوم النظام العالمي لا يظهر إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبالضبط مع تطور وسائل الاتصال، حيث بدأت الطلائع الجديدة في أوروبا (السياسية والثقافية) تدرك العالم الذي يحيط بها، والذي تشغل به أوروبا المركز، بينما بقى العالم الآخر هامشيًا، على الأطراف المتخلفة والبدائية والتي يجب غزوها وتدميرها. وقد كانت المركزية الأوروبية صيحة حرب على الثقافات والحضارات الأخرى وكانت دعوى إلى تدمير العالم ونهبه وفرض الحصار عليه، هذا النهب من وجهة نظر "عبد الملك" شكل فائض القيمة التاريخي الذي بنت فيه أوروبا نفسها على حساب العالم(٨).

وفي هذا يقول "عبد الملك":" لم يكن هناك وعي بوجود واقعي مؤثر اسمه "العالم". على العكس تماما مما نحياه اليوم، وإنما حان مفهوم العالم، مفهومًا تاريخًا،

فلسفيًا، دينيًا، يرمز إلى إدراك شامل لمجموع ما تم اكتشافه وتدوينه في كتب الرحلات والجغرافيا ... ظهر أيضًا إدراك العالم بالوعي بالعالم منذ أقل من قرن من الزمن، وإن كان العالم الواقعي ظاهرة موضوعية تمت إلى أقدم العصور أي أنها ظاهرة موضوعية من حيث وجود القارات والمحيطات وإن كان هذا العالم الموضوعي غير مترابط، ومتفاعل في نسيج متصل الخيوط والتأثيرات المتبادلة قبل بداية القرن العشرين[٩].

على الرغم مما ذكره "عبد الملك" إلا أنني اختلف معه في الرأي السابق، أي في تأكيده على أن فكرة العالمية فكرة حديثة فحسب، ظهرت مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وأؤكد على أنها فكرة قديمة حديثة في آن، فقد كانت فكرة العالمية قائمة في الفكر اليوناني وخاصة عند دعوة الرواقية للعالمية، وكذلك لم تكن الحضارة الرومانية إلا دعوة للسيطرة على العالم، كما جاءت الحضارة الإسلامية بالدعوة العالمية أيضًا وهنا يوافقني القول "وهبة أبو العلا" إذ يقول "إن حلم انفراد دولة واحدة بعينها بحكم هذا الكوكب –والكون كله إن أمكن– لم يتحقق في اعتقادي إلا قرب منتصف هذا القرن، إلا أنني أرى أن هذا الحلم كان يداعب باستمرار شتى الأمم والحضارات عبر مسيرة التاريخ منذ الماضى السحيق. فهذا الحلم كان يشكل الأساس التحتي لفكرة العالمية، أعني لفكرة السيطرة على العالم وإخضاعه لجنس من الأجناس أو لقوم من الأقوام أو حتى لفرد من الأفراد التي عرفتها سائر الأقوام منذ الماضي السحيق. صحيح أن هذه الفكرة بمعناها الدقيق قد تكون غير معروفة للإنسان البدائى أو لإنسان الكهوف، غير أنه من الإجحاف الزعم بأن هذه الفكرة كانت غائبة على الإطلاق عن ذلك الإنسان. فمن الممكن الرد على هذا الزعم بالقول بأن الكهف والبقعة المحيطة به كان يمثلان بالنسبة لذلك الإنسان العالم بأكمله مما يعنى أن فكرة سيادة العالم لم تكن غائبة عنه كليةً باعتبار أن سيطرته على البقعة المحيطة كان يعني ضمنًا سيطرته على العالم أجمع ولكن هذه العالمية لم تكن بعد عالمية بالمعنى الدقيق[١٠].

ويكمل "أبو العلا" حديثه قائلا:"إن حلم سيادة قبيلة من القبائل أو قوم من الأقوام أو حضارة من الحضارات أو حتى فرد من الأفراد باعتبار أن هناك حلم دفين في داخل كل فرد من الأفراد يجعله يأمل دومًا في أن يسود سائر البشر أو حتى يصير إلها –إن أمكنه– للعالم هو حلم قديم ربما قدم الجنس البشري نفسه"(١١).

ويوكد "إن تفسير تاريخ البشر والحضارات على أنه تاريخ محاولات البشر وفشلهم في السيادة على العالم وإخضاعه لسيطرة طائفة أو جنس أو حتى فرد واحد بعينه هذا الفشل قد يكون راجعًا إلى أسبابٍ عديدة مختلفة قد تكون متناقضة فيما بينها. غير أن هناك في اعتقادى سببًا رئيسيًا يشكل الأساس التحتى لسائر أسباب الفشل هذا السبب هو توازن ميزان القوى المادية والبشرية والتكنولوجية والسياسية والعسكرية وهذه القوى الأخيرة هي أهم هذه القوى على الإطلاق بين الأمم والحضارات"(١٢).

أسباب الهيمنة على العالم:

بعد أن أكد "عبد الملك" على أن "النظام العالمي القائم آنذاك – الذي وجد في بداية القرن العشرين– كان هو نظام الهيمنة الأوروبية على سائر القارات آسيا، أفريقيا .... باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ذلك هو الأمر الواقع منذ القرن الخامس عشر"(١٣).إلا أنه يرى أنه بعد خمسة أجيال من الهيمنة شرعت العلوم الاجتماعية الأوروبية، ثم الغربية تتساءل عن أسباب تلك الهيمنة واستمرارها وانقسم الرأي بين عدة اتجاهات رئيسية:

١– ذهب المفكرون التقليديون إلى أن هذا الواقع يمثل إشكالًا خاصًا، فمن كان أكثر تقدمًا لابد أن يكون أكثر قدرة أو كفاءة أو أهلية، أي أن أمر الهيمنة الأوروبية الغربية أمر طبيعي لا يمثل جديدًا، أفلم تأتي هذه الهيمنة بعد عصر النهضة ؟ أفلم تكن هذه النهضة الأوروبية فحسب ؟ ..... إن العالم كان ولا يزال وسيظل، نظرة دائرية تمثل أيضًا مراكز الهيمنة التقليدية وهنا لا وجود للشرق الحضارى الشامخ وحضارات العريقة، واستمرار خصوصياته الثقافية والقومية في

تشكيل النظام العالمي، ما دام خارج أرضية التحرك الفعال. ابتداءً من هذه النظرة الدائرية المغلقة، نظرة الهيمنة، بل والوجود المتوحد لأوروبا والغرب على ساحة التاريخ [١٤].

هنا يتفق "ونيستون تشرشل" مع هذا الرأي السابق الذي يؤكد على أن القويّ والأكثر تقدمًا هو الوحيد الذي له حكم العالم وفي ذلك يقول "يجب أن تؤتمن حكومة للعالم تعبر عن الأمم التي لا ترجو لنفسها شيئًا أكثر مما بحوزتها ... إنّ قوتنا تضعنا فوق الجميع. فنحن أشبه برجال أغنياء يعيشون آمنين في مساكنِهم". هكذا يدلل "تشرشل" على أن الحكم هو حق ومهمة للرجال الأغنياء الذين يعيشون في سلام يستحقونه[١٥].

ويؤكد "تشومسكى" خطأ قول "تشرشل" لسببين: الأول، أنه ليس صحيحًا أنَّ الرجال الأغنياء يقنعون بما في أيديهم ولا يسعون إلى المزيد، فهناك أكثر من طريقة لزيادة ثروة المرء وإخضاع الآخرين في ذات الوقت. الثاني، يتعلق بالقول الواهم بأن الأمم لاعب أساسي في المجالات الدولية، وهو قول يعبر عن خداع قياسي، نظرًا لأنه داخل الأمم الغنية – كما هو داخل الأمم الجائعة – هناك فروق هائلة بين الامتيازات والسلطات"[١٦].

٢– مرحلة نقد الطرح التقليدي للعلوم الاجتماعي، وقد ذهب عدد من هؤلاء النقاد المجددين إلى أن التاريخ يمكن وصفه على النمط التالي:

– الدائرة التقليدية، دائرة الهيمنة الأوروبية تظل كما هي حسب مفهوم الاتجاه الأول سابق الذكر، غير أن هذا العالم اعتبر مكونًا من وحدات قيل أنها مصطنعة. ذلك أن تلك الوحدات أي الدول الأوروبية لم يكن لها واقع عميق الجذور، إذ تكونت عبر مسيرة من التراكمات قيل إنها إقطاعية في البداية، ثم أدت بعد مرحلة إلى صراعات مع طبقات مجتمعات الدولة التي انقسمت بدورها إلى قطاعين، مجموعة مراكز القوى الرأسمالية من ناحية، وفئات أو طبقة العاملين في المصانع من ناحية أخرى[١٧].

وقد أكد هؤلاء النقاد أن العالم الحديث الأوروبى سبقته مجموعة غير متجانسة من الظواهر بعضها في القارة الأوروبية، ومعظمها خارج هذه القارة وفي هذا اعتراف على الأقل بأنه كانت هناك ظواهر اجتماعية، بل وحضارات خارج دائرة الهيمنة التقليدية. مجتمعات مبعثرة أو حضارات وإمبراطوريات تسيطر على قطاع من قارة أو قارات ... والهدف من هذا السرد هو إنكار تاريخية العالم في مجموعه إذ أن الاعتراف بهذه التاريخية معناه الاعتراف بعراقة حضارات الشرق وقدرتها الخارقة على الاستمرارية التاريخية عبر عشرات القرون... وبذلك أصبح العالم عند هؤلاء النقاد الغربيين المجددين يتكون من عوالم ثلاث: العالم الرأسمالى، العالم الاشتراكى، العالم الثالث(١٨).

في حقيقة الأمر إن "عبد الملك" يرفض تلك التقسيمات للعالم التي تهمش دور العالم الشرقي فيؤكد على أنه لا يقل مكانة عن العالم الغربي الأوروبي والأمريكى معًا ويستشهد هنا "بأرنولد توينبي وجوزيف نيدهام" في التأكيد على أن العالم يتكون من تسلسل زمني ومن مختلف الوجهات التي تمت إلى أنماط حضارية وثقافية وقومية متنوعة احتل فيها الشرط الحضاري مكان الصدارة حتى نهاية القرن الرابع عشر، بل وفي حالة العلوم التكنولوجية حتى بداية القرن السادس عشر، أي حتى عصر تكوين نظام الهيمنة الأوروبية ثم الغربية في القرن الخامس عشر، وهو الأمر الثابت والمعترف به دون جدال(١٩).

ثلاث رؤى لتغيير العالم:

يعرض "عبد الملك" لثلاث رؤى حاولت أن تقوم بتغيير العالم من زوايا مختلفة وهي كالتالي:

١- الرؤية التقليدية:

لقد اكتسب الاتحاد السوفيتي قوة ونفوذًا في النظام العالمي القديم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، واستطاع خلال فترة الستينيات أن يصبح أحد أهم القوتين العظمتين اللتين تربعتا على قمة النظام العالمي وتمكنتا من الهيمنة والسيطرة على المجتمع الدولي ورسم السياسات العامة لها سواء في السلم أو الحرب، ومثّل انهيار الاتحاد السوفيتي نهاية مرحلة النظام العالمي ثنائي القطبية وبداية نظام عالمي جديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. بذلك أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تعظم نفوذها كدولة عظمى تنفرد بشكل كامل بالشأن العالمي من خلال الانتشار عالميًا على كافة المستويات وتحقيق أكبر قدر من النجاحات والانتصارات السياسية والعسكرية(٢٠).

يرى "عبد الملك" أن النظرة التقليدية التي ترى أنه "لا مفر من تغليب نظام ومذهب على آخر" لا يمكن أن تتحقق، وبالتالى لا يمكن أن تحدث تغييرًا في النظام العالمي إلا بواسطة وعبر حرب عالمية ثالثة، وهو ما يرفضه معظم المسئولين، بينما أصبحت القلة المؤمنة بهذا الحل المدمر في مأزق أمام صحوة الضمير العالمي، وكذا تزايد فعالية عامل الواقعية السياسية في كافة المجالات"(٢١). وبذلك فقد وجد أصحاب هذا الاتجاه أنفسهم في مأزق خاصة وأن الحرب النووية هي حرب مدمرة.

٢- الرؤية التكنولوجية:

إن الثورة الصناعية الثانية التي طالت حتى الجانب البيولوجي في الإنسان، سوف تمكنه من التحكم في الطبيعة، وسوف تفتح له آفاقًا رحبة في التقدم والتغيير والتوازن. لكن "عبد الملك" يرى أن تحكم قلة من المجتمعات فيها- أي في الثورة

الصناعية- يجعل منها عائقًا في وجه حركة التغيير، بالإضافة إلى أنها تهدف إلى هيمنة طرف على آخر. إضافة إلى أنها تساهم في تعميق الهوى بين العالم الصناعي المتقدم والقارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وتكريس التبعية كشكل جديد من الاستعمار(٢٢).

ومع هذا فمما لاشك فيه أن التقدم الهائل الذي تمثله معطيات الثورة العلمية والتكنولوجية بوصفها المرحلة الثانية للثورة الصناعية يعتبر جزءَ لا يتجزأ من أداة العمل، والتي أصبحت في متناول عدد من المجتمعات المتقدمة في عصرنا، ولكنها ليست المفتاح الهادى إلى مستقبل لا مفر منه. وعلى العكس من ذلك فإن تحكم قلة من المجتمعات في هذه الأدوات سوف يزيد من قدرتها على صد وتحريف حركة تغيير العالم التي تبدو في الأساس تهديدًا للقطاع الاستعماري وهيمنته، إذ أنها تعمل على تحقيق حياة إنسانية إيجابية خلاقة لجميع الشعوب(٢٣).

٣- الرؤية الثالثة:

تلك الرؤية التي بنى عليها "عبد الملك" أمله والتي ترى أن للشرق الحضارى دورًا كبيرًا في الريادة التاريخية وفي النهوض وتغيير النظام العالمي وذلك استنادًا إلى عمقه الحضاري وتاريخ نهضته القوية. إن الشرق الحضاري عند "عبد الملك"، ليس مفهومًا غائمًا ولا يوتوبيا في إبداعه، إنه مفهوم يستند إلى وجود حضاري، يجد تعبيره في دائرتين:

- الدائرة الأولى: وتشمل اليابان والصين وبعض دول جنوب شرق آسيا، حيث بدأت هذه البلدان بطرح مفاهيم جديدة ومن خلال تجربتها الحضارية على التطور الرأسمالى والاشتراكى، سواء في التجربة اليابانية ذات النمط الرأسمالي الجديد أو الاشتراكية الشعبية الصينية.

- الدائرة الثانية: وهي الدائرة الحضارية الإسلامية وتتمحور حول الأمة العربية وتمثل العروة الوثقى الجديدة وعلى حد تعبيره في كتابه "ريح الشرق" والتي بواسطتها نستطيع أن نعبئ طاقتنا، وذلك في إطار إستراتيجية حضارية، تسعى إلى

تحريك نهضة الشرق الحضاري في اتجاه استقلالي وإنساني يسعى إلى العدالة والمساواة وبعث المعاني الروحية الكبرى التي لولاها لما كانت التنمية ولا التحديث إلا أسلحة معكوسة تفتت طاقتنا وتجعل منا أدوات طيِّعة بين أيدى العدو الحضاري[٢٥].

وفي ذلك يؤكد "عبد الملك": "إن الشرق الحضارى – شعوبًا ودولًا – هو الذي بدأ يتحرك منذ أوائل القرن التاسع عشر في مواجهة عارمة من ثورات وحروب التحرير الممتزجة أحيانًا بالثورات الاجتماعية بحيث أصبح حامل لواء التحدي الرئيس للنظام العالمي القائم، وكذا صاحب المصلحة الرئيسة في عملية تغيير العالم"[٢٦].

من خلال هذه الرؤى الثلاث يتضح مدى اعتزاز "عبد الملك" بحضارته وقوميته الشرقية والعربية ومدى تأكيده على عدم إغفال دور العالم الشرقي في تغيير نظام العالم هذا بالإضافة إلى تأكيده على أن "الاستعمار الصهيوني استعمار قائم بذاته، وليس أداة لاستعمار غربي محدد هو الاستعمار الأمريكي وهو اليوم أخطر أنواع الاستعمار الغربي قاطبة ليس فقط ضد العرب، وإنما ضد عقلانية العلاقات الدولية وضد التعايش السلمي وضد إعادة تشكيل موازين القوى والنظام الاقتصادي العالمي الجديد ما لم يكن له دور الهيمنة في قلب العالم كله. ومن أجل هذا يعمل الاستعمار الصهيوني حليفًا رئيسًا – لا كأداة أو وكيل– للجبهة الاستعمارية كلها بقيادة أمريكا، بل ويفرض عليها فرضًا خطوات الإستراتيجية ومعدلات التحرك وحدوده بشكل متزايد باطراد"[٢٧].

وهنا نجد أن تلك الحقيقة التي كثيرًا ما يخشى البعض ذكرها صراحة يرفضها "عبد الملك" صراحة ويرفض تلك الهيمنة الاستعمارية قلبًا وقالبًا.

الخروج من أزمة العالم المعاصر:

ذهب "عبد الملك" في تعريفه لأزمة العالم المعاصر بقوله "إن أزمة العالم المعاصر ليست اقتصادية، ولا سياسية في المقام الأول. ولكنها أزمة شاملة، أي أزمة حضارية، أزمة النمط الحضاري، المهيمن منذ القرن الخامس العشر، وقد بدأت أنماط ومشاريع حضارية أخرى تتكون بشكل أولي في الدوائر التي قيل أنها هامشية حتى الآن، وربما شاءت الظروف أن تتقدم الصفوف على الأقل للتعبير عن التحدي للمشروع الحضاري الغربي المهيمن منذ القرن الخامس عشر أي المشروع الحضاري الأحادي البعد، الذي وحّد العالم، وربما بلغ الآن حد التأزم"[٢٨].

من خلال هذا التعريف يرى "تركي على الر بيعو" أن "عبد الملك" يدعو إلى حوار حضاري، اعتراف بالآخر وامتداداته الوجودية، حوار من شأنه أن ينهي حالة الاغتراب، ويعيد طرح المفاهيم من منظور جديد، ليقلب رأسا على عقب، الكثير من التصورات والمسلمات التي سادت نتيجة لهيمنة مراكز القوى العالمية على وسائل الاتصال الجماهيري، والتي أدت إلى سيادة النزعة الفردية وانتشار القيم الاستهلاكية والتي جعلت من الإنسان في النهاية مجرد أداة للاستهلاك، كما قادت إلى انتشار المذاهب الفلسفية العدمية ويؤكد أن افتتاح التغيير ينشأ من الحاجة إلى صياغة مشروع حضارى يتكون في الواقع من عدة مشروعات حضارية، تساهم في تقديم رؤى جديدة، تعيد إلى الإنسانية أملها في الحياة على قاعدة من التنوع الحضاري[٢٩].

وللخروج من هذا المأزق يرى "عبد الملك" أن العالم يتجه الآن نحو صياغة نظام عالمي جديد، هذا النظام المرتقب لن يتخذ شكل إحلال قطب عالمي أوحد محل القطب القائم، كما لن يعود إلى نظام القطبية الثنائية الذي كان سائدًا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وإنما سيتخذ هذا النظام الجديد صياغة "عالم متعدد الأقطاب والمراكز والثقافات" هذا العالم الجديد تشكله ثلاثة مكونات رئيسية.

١- الأقطاب: هي الأمم الكبرى ويعرف "عبد الملك" الأمة بأنها "المجتمع المتكامل الذي أثبت قدرته على الاستمرارية عبر التاريخ الطويل أو الوسيط من

الوحدة الأساسية العاملة بشكل فاعل ومؤثر في الدائرتين الإقليمية والعالمية" ويعيش أفراد ذلك المجتمع القومي حول مركز سلطة اجتماعية واحد هو الدولة الوطنية، وهي الظاهرة التي تعبر عن خصوصيتها في ثقافة وطنية جامعة تصل أحيانا إلى مستوى الرؤية العامة للعالم المحيط. وفي هذا المقام يذكر "عبد الملك" دور الأمم الثابتة في تحديد مسار الأزمات والتحديات الكبرى وهي مثل: إيران وكوريا الشمالية والهند وباكستان في مجال الطاقة الذرية والسلاح النووي.

ويرى "عبد الملك" أنه لما كانت الأمة هي الفاعل الرئيسى في صياغة مستقبل العالم فإنه لا ينبغي لها الرضوخ لسياسات العولمة التي لا تعنى إلا "ضعف مناعة الإرادة القومية" و "التراضي مع الهيمنة" و "التنازل عن مكانة الأمة وحق الشعوب في تقرير مصيرها"(٣٠).

٢- التجمعات الإقليمية: وهي الآلية التي من خلالها تفعِّل الأمم قدرتها على العمل والتأثير في مواجهة ضغوط وتحديات العولمة، وكذا مواجهة تأثير نظام هيمنة القطب الأوحد ويميز "عبد الملك" بين نوعين من التجمعات الإقليمية: النوع الأول، يقوم على المصالح المشتركة بالمعنى المادي يهدف إلى الحفاظ على ثوابت السياسة الخارجية والأمن، ويذكر أمثلة من بينها مجموعة دول حوض النيل والسوق الأوروبية المشتركة وتطورها إلى الاتحاد الأوروبى، ونوع آخر يقوم على الجمع بين المصالح المادية من ناحية والعوامل الجغرافية والثقافية من ناحية أخرى ويذكر من بينها دائرة الأورومتوسطية. ويرى "عبد الملك" أن هذه التجمعات الإقليمية تصلح قواعد لمراكز عالمية جديدة لا ترتفع إلا مستوى الأقطاب العالمية.

٣- الثقافات: باعتبارها تجمعات تحتل ساحات هائلة عبر القارات ولكونها تؤثر على وجدان الشعوب والمجتمعات والطلائع بدرجات مختلفة، فإن ساحة الأديان والحضارات هي المكون الثالث للعالم الجديد المرتقب. ويعرف "عبد الملك" الحضارة بأنها الدائرة الشاملة الجامعة لمجموعة من الأمم والمناطق الجيو-ثقافية التي يجمع بينها عدد من اللغات والرؤى المتجانسة كما تمتلك مسيرة تاريخية مشتركة بعيدة

الأمل، هذه المسيرة هي المنبع الرئيس للرؤى والمفاهيم التي تحدد خصوصية هذه الحضارة أي هي العنصر التكويني الأول لصياغة خصوصية حضارة ما. وبذلك فإن الحضارات في فكر "عبد الملك" لها دور فاعل دولي، شأنها في ذلك شأن الدول القومية والتجمعات الإقليمية، بل إن متباعة دقيقة لما يجرى على الساحة العالمية يكشف أن الحضارات الآن هي العامل الحاسم في الفكر والعمل بدلا من الشركات عبر القومية وعبر القارية التي ينتمي معظمها إلى دائرة الهيمنة الغربية.

وفي النهاية يمكننا القول: إن "عبد الملك" يؤكد على أهمية الانتماء القومي والحفاظ على الشخصية القومية، ولا يرى في هذا الأمر تعارضًا مع التوجه نحو مستويات الانتماء الأوسع طالما هناك وعد من الشعوب والقيادات لخصائص كل من هذه المستويات المتوازية.

ومن هنا فإن الواقع الذي نعيشه اليوم ليس منبت الصلة عن تاريخنا وإنما هو نتاج سلسلة من الأحداث التاريخية المتواترة والمترابطة والقائمة على تحقيق مجموعة من الأهداف بعضها ثابت لم يتغير عبر التاريخ وبذلك يكون للعامل الثقافي تأثيرًا أكيدًا في السياسة الدولية(٣١).

وأخيرًا، فأنني اتفق مع "عبدالملك" في التأكيد على أن النظام العالمي الجديد المرتقب لن يتخذ شكل إحلال قطب عالمي أوحد محل القطب القائم، كما لن يعود نظام القطبية الثنائية الذي كان سائدا خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وإنما سيتخذ هذا النظام الجديد صيغة "عالم متعدد الأقطاب والمراكز والثقافات"، وذلك لأن الدولة التي تحتل مركز القطب الأوحد– أعنى الولايات المتحدة المريكية– لم تعد بنفس القوة التي ظهرت بها وهناك العديد من الشواهد تؤكد صحة ذلك القول، ناهيك عن صعود دول أخرى على المستوى الاقتصادى العالمي، والعسكرى، والعلمى، والتكنولوجى....الخ كالصين، واليابان، وماليزيا، وتركيا وغيرها، بالإضافة إلى احتمال ازدياد نفوذ قوى بعض البلاد العربية بعد تحررها من الأنظمة الاستبدادية ونشر العدالة بين أبناء الوطن الواحد.

الهوامش

(١) علاء عبد الحفيظ وآخرون: مستقبل النظام العالمي في عام ٢٠٣٠ رؤية مستقبلية لدور خارجي يحقق رؤية مصر ٢٠٣٠، إشراف محمد إبراهيم منصور، القاهرة، مركز الدراسات المستقبلية، ٢٠٠٩، ص ٤.

(٢) نفسه.

(٣) مفيد نجم: النظام الدولي الجديد، الإمكانات وغياب الإستراتيجية والمعايير، ص ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٤) نفسه، ص ٢٠٧.

(٥) أنور عبد الملك: تغيير العالم،الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٩٥ ،١٩٨٥، ص ١١.

(٦) نفسه، ص ١٢.

(٧) محمد عبد القادر حاتم: العولمة ما لها وما عليها، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ص ١٨.

(٨) تركي علي الربيعو: تغيير العالم أم أزمة العالم، ٢٠٠٩/٤/٢٦.

(٩) أنور عبد الملك: مرجع سابق، ص ص ١٢، ١٣.

(١٠) وهبة طلعت أبو العلا: الوجود المقلوب، رؤية فلسفية معاصرة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٧م، ص ص ١٧-١٨.

(١١) نفسه، ص ص ١٨، ١٩.

(١٢) نفسه، ص ص ١٩-٢٠.

(١٣) أنور عبد الملك: مرجع سابق، ص ١٤.

(١٤) نفسه.

(١٥) نعوم تشومسكي: النظام العالمي القديم والجديد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠، ص ١٠.

(١٦) نفسه، ص ١١.

(١٧) أنور عبد الملك: تغيير العالم، ص ١٥.

(١٨) نفسه، ص ١٦.

(١٩) نفسه، ص ١٧.

(٢٠) عبد الخالق عبد الله، النظام العالمي الجديد، الحقائق والأوهام، السياسة الدولية، القاهرة، مؤسسة الأهرام، العدد ١٢٤، أبريل ١٩٩٦، ص٣٨.

(٢١) أنور عبد الملك: تغيير العالم، ص ٣٣.

(٢٢) تركي على الربيعو: مرجع سابق.

(٢٣) أنور عبد الملك: تغيير العالم، ص ٣٧.

(٢٤) تركي علي الربيعو: مرجع سابق.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) أنور عبد الملك: تغيير العالم، ص ٤٢.

(٢٧) نفسه، ص ٥٣.

(٢٨) نفسه، ص ١٤٤.

(٢٩) تركي علي الربيعو: تغيير العالم أم أزمة العالم؟.

(٣٠) أنور عبد الملك: الأقطاب ... المراكز ... الثقافات، القاهرة، العدد ٦٨، ٢٠٠٥.

(٣١) نفسه.